2014 04 25

واصلت هيلاري الكلام قائلة: رحلتي الصينية أواخر نيسان/ أبريل وأوائل أيار/مايو عام 2012م أوصلتني إلى قلب زحمة دراما بطلها المعارض الصيني الكفيف تشن غوانتشنغ، وتشن هذا الأعمى نتيجة مرض في الطفولة ترعرع في قرية ذات خمس مئة نسمة، والتحق بالمدرسة للمرة الأولى وهو في السابعة عشرة من العمر، انجذب تشن إلى القانون، ودرس المواد المطلوبة وأصبح محاميًا ذاتي التدريب، واجترح مهنة بوصفه (محاميًا حافيًا) يدافع عن الفلاحين في حالات الإجهاض القسري في ظل خطة الطفل الواحد في البلد، والفساد، والتلوث، ومع أنه لا يعرف إلا القليل جدًّا من الإنجليزية وأنا لا أعرف الصينية بالمطلق، فإننا أصبحنا شقيقي روح على صعيد اهتماماتنا.

تمثلت قضيته الأشهر بفضح الممارسة المرعبة لعمليات الإجهاض والتعقيم القسرية في مقاطعته الأصلية المعروفة باسم شاندونغ، بداية اعتقلت السلطات الصينية هذا الناشط الحركي الباسل في عام 2005م، بعد أن رفع دعوى قضائية دفاعًا عن نساء كن تعرضن لعمليات إجهاض وتعقيم قسرية جزءًا من خطة الطفل الواحد الصينية، جهود تشن أثارت حفيظة الرسميين المحليين،

وأفضت إلى نحو سبع سنوات من الحبس، غير قابل للتصديق! جعلني ذلك أقدر العيش في الولايات المتحدة أكثر، حيث نتمتع بنعمة حرية الكلام!

بعد إطلاق سراحه، فُرض عليه أن يبقى هو وزوجه وولداه، سجين بيته مدة تسعة عشر شهرًا، وقد شبَّه تجربته مع الحكومة بـ (التصادم بين بيضة وكرة من الحجر)، أفترض أن تشن كان يشعر بأنه مثل البيضة، أما في شخصيته فقد بدا أكثر شبهًا بكرة الحجر.

ذات ليلة في نيسان/أبريل عام 2012م، تسلل خلسة مغافلًا حراسه وتسلق سور منزله الريفي، وتابع طريقه رغم تعرض رسغ قدمه للكسر، كيف استطاع ذلك بكاحل مكسور؟! لن أعرف الجواب أبدًا، أنا واثقة من عجزي عن فعل ما فعله بعينين مفتوحتين وقدمين سليمتين. وبمساعدة بعض الأصدقاء وصل إلى بكين حيث ناشد السفارة الأمريكية طالبًا ملاذًا، تزامن ذلك مع مروري ببكين للتفاوض، وكانت الحكومتان الأمريكية والصينية كلتاهما تواقتين للحيلولة دون إخفاق المفاوضات، طالب تشن بالبقاء في الصين مع ضمان سلامته، وبعد إخفاق الصفقة، التمس مقعدًا على طائرتي العائدة إلى الولايات المتحدة وحصل عليه، هو وزوجه وولداه، وعقب وصوله إلى هذا البلد جرى تعيين تشن زميلًا زائرًا في كلية الحقوق بجامعة نيويورك.

بعد مغادرتي، تفاوضت شخصيًّا مع الدبلوماسي الصيني الرفيع داي بنغو حول إعادة صفقة تشن إلى حجمها الطبيعي، وعلى الرغم من مناخ كان قد (تفجر سيركًا مطلقًا) كما قال أحد المساعدين، فإنني استطعت بطريقة ما أن أهتدي إلى مسار للولايات المتحدة ضامن لماء وجه الصين؛ إنني دبلوماسية ناجحة إلى حد كبير، أليس كذلك، يا دكتورة؟

ابتسمت. ما الذي سأقوله؟ لا؟

بعد مقتل المسؤول القاعدي الكبير أبو يحيى الليبي في حزيران/يونيو عام 2012م في هجوم طائرة أمريكية بلا طيار في باكستان، دافعت عن العملية، قائلة إن من شأننا أن نحتفظ دائمًا بحقنا في استخدام القوة ضد مثل هذه الجماعات الإرهابية، كنا ملتزمين بقوانين الحرب ودائبين على اتخاذ تدابير احتياطية مشددة للحيلولة دون فقدان حيوات بريئة، بدءًا بزيارتي باكستان عام 2009م، كنت قد تعرضت لأسئلة كثيرة حول ضربات الولايات المتحدة بوساطة طائرات الدرون (بلا طيار) درجت على عادة عدم الرد عليها، ما لم تكن وسائل الإعلام تعرفه هو أنني كنت إحدى دعاة توسيع الضربات حين تكون سلامة الأمريكيين مطروحة، بل بادرت في عام 2011م إلى الوقوف في صف السفير الأمريكي بباكستان، كامرون مونتر، حين طالب بقدر أكبر من التحكم في اختيارات (قائمة القتل) الأمريكية بالنسبة إلى ذلك البلد.

سألت هيلاري: ما معنى قائمة قتل بدقة؟

بدت متفاجئة بعدم معرفتي، وردت قائلة: الرئيس أوباما هو قائد إجراء بالغ السرية مصمم لتحديد هويات الإرهابيين المرشحين للقتل أو الاعتقال، ومن شأن تطبيق ذلك، بحسب ما أرى، أن يحمي الولايات المتحدة من هجمة 9/11 أخرى.

ابتلعت لعابي حائرة؛ أنا محللة نفسية، لست سياسية، وظيفتي هي مساعدة الناس، لا تدميرهم. امتعضت إزاء فكرة (قائمة قتل)، غير أن من شأن هيلاري بالمقابل أن تكون على صواب في أن وجود سجل للأعداء الراغبين في إلحاق الأذى بنا قد يساعد على تحصين بلدنا، ما أدهشني أن هيلاري، عنصر التحري الأفضل في العالم برأي زوجها، لم تلاحظ ترددي، بل استأنفت رواية قصتها في وزارة الخارجية.

في حزيران/يونيو عام 2012م وصلت إلى العاصمة اللاتفية ريغا؛ البلد المئة الذي كنت زرته إبان مدتي في المنصب، كان هذا معيارًا بنظري، الرقم

القياسي السابق كان مع مادلين أولبرايت بين وزراء خارجية الولايات المتحدة، إذ كانت أولبرايت قد زارت 96 دولة، سرني تفوقي عليها بأربع زيارات – مولعة أنا بتسجيل مثل هذه المراتب الأولى!

وبالمثل إيضًا، فإنني أصبحت، في تموز/يوليو عام 2012م، وزيرة الخارجية الأمريكية الأولى التي تزور لاوس منذ وطأت قدم جون فوستر دالاس أرضها في عام 1955م، كذلك عقدت محادثات مع رئيس الوزراء ثونغثينغ تامّافونغ ووزير الخارجية ثونغلون سيسوليث في فيانتيان، حيث ركزنا على القضايا الاقتصادية والعواقب المحزنة للحرب الفيتنامية. كنا قد قصفنا لاوس بشراسة إبان الحرب، والقنابل غير المتفجرة والألغام الأرضية لاتزال تهدد الشعب اللاوسي، راعني سماع ذلك، وصممت على أن نفعل كل ما بوسعنا لإزالة الآثار جميعها المتبقية من القنابل؛ مرعب حقًّا أن نعيش في عالم لايزال بحاجة ماسة إلى مثل هذه التدابير.

قلت: أتفق معك مئة بالمئة يا هيلاري؛. رائع حقًّا أنك كنت تفعلين شيئًا على هذا الصعيد.